

بِاسْمِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: 84، 85] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

تفسير سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بشر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي بدأها ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو خالق السماوات والأرض. وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ أي يطبرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾ أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جل وعلا ﴿يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقيل: يزيد في حسن الصوت، وقرئ في الشاذ «يزيد في الحلق» بالحاء المهملة.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وقد روى الإمام أحمد أن المغيرة بن شعبة سمع رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وسمعتة ينهي عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات. وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾. ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرّد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَافٌ تُؤَفَّفُونَ﴾ أي فكيف تؤفكون؟ بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان. والله أعلم.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤)

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ﴾ أي هؤلاء المشركون بالله، ويخالفوك يا محمد فيما جنتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أوفر الجزاء.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَضُوكُمُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥)

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَعْرَضُوكُمُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه، وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ هو الشيطان، أي لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦)

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي إنما يقصد أن يضلحكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧)

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبَ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨)

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة

لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الشُّورُ ﴿٩﴾﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿أَهْزَنْتَ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ [الحج: 5] كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، وينبت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق، ومنه يركب» ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ وفي حديث أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك ممحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى».

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده، لأنه تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أَيَبْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراؤون بأعمالهم ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142] والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلمات لسانه وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على الغبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف لهم عن قريب. وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة لكم، أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَمْلِكُهَا وَلَا حَبَّةَ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس، قال ابن جرير: وهذا كقولهم: عندي ثوب، ونصفه، أي ونصف ثوب آخر. وعن ابن عباس: يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل للجميع، لا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِنَبِّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وال عمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الذَّوْبُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: 22] وقوله جل جلاله ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ﴾ أي تمخره وتشقه بحير ومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير، وهو صدره، وقوله عز وجل: ﴿لِنَبِّغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾

وهذا أيضاً من قدرته الثامة، وسلطانه العظيم في تسخير الليل بظلامه والنهار بضياؤه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي والنجوم السيارات والثوابت الناقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسرون بمقدار وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرأ من عزيز عليم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿مَا يَمْلِكُوكُمْ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْتِفِكُ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ﴿١٤﴾

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم، لأنها جناد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي لا يقدرُونَ على شيء مما تطلبون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي يتبرأون منكم ﴿وَلَا يَنْتِفِكُ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات إليه، وتدلها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول، ويقدره ويشعره.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس، وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا

قُرْبَىٰ ﴿٢١﴾ أَي وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوْ ابْنَهَا، كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ ﴿إِنَّمَا نُذِيرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي إِنَّمَا يَتَعَبَّ بِمَا جِئْتُ بِهِ أَوَّلُ الْبَصَائِرِ وَالنَهْيِ، الْخَائِفُونَ مِنْ رَبِّهِمْ، الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ﴿وَمَنْ تَرَكَّنِي فَإِنَّمَا يَتَرَكَّنِي لِنَفْسِهِ﴾ أَي وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٢﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٣﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير، لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين، وهم الأحياء، وللكافرين، وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 122] فالْمُؤْمِنُ بصير سميع في نور عيش على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون. وَكَالْكَافِرُ أعمى أصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَمْشُونَ ﴿٢٣﴾ لَا يَارِدُ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة: 43، 44].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿يَعْنِي اللَّهُ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي يَهْدِيهِمْ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولِهَا وَالْإِقْبَادِ لَهَا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أَي كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْأَمْوَاتُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَصِرُورَتِهِمْ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَهُمْ كَفَّارٌ بِالْهُدَايَةِ وَالْدَعْوَةِ إِلَيْهَا كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ، لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُمْ. ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أَي إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنْدَارُ، وَاللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أَي وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمُ النَّذِيرَ، وَأَزَاحَ عَنْهُمْ الْعِلَلَ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7]

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ وَإِلَّا يَكُنِ النَّاسُ مَثَلًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَأَن يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات. ﴿وَبِالْزُّبُرِ﴾ وهي الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح البين.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمرة، وفي بعضها طرائق، وهي الجدد، جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً، ومنها غرابيب سود. الغرابيب الجبال الطوال السود، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غرابيب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناس والدواب، وهو كل ما دب على القوائم، والأنعام من باب عطف الخاص على العام، كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش، وطماطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض. والعرب بين ذلك: والهندودون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَأَخْلَجْنَا السَّبْكَ وَالْوَيْكَرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22] وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى أتم كلما كانت المعرفة به أتم وكلما كان العلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة

والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية ﴿يَرْجُونَ نَجْرَةً لَّنْ كُتُوبٍ﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله .

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣١)

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم .

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

بَصِيرٌ﴾ (٣٢)

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له هي بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٣)

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو المبرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وعن ابن عباس : قال هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٤)

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة، يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم

في الدنيا، فأباحه الله لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»، وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة».

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أراحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة. روى الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾».

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء. والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم. والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ

يَجْزَىٰ كُلُّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74] وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار فلا يموتون فيها ولا يحييون» فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفِينَ ﴿٧٦﴾ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: 74، 75] ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزَىٰ كُلُّ كَافِرٍ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا

بَتَدَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا

غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٢٨﴾ أَي سَأَلُونِ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ جَلَّالَهُ أَنَّهُ لَوْ رُدُّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، وَلِذَا قَالَ ﴿أَوَلَمْ نُنْعِمْكُمْ مِمَّا يَنْذَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ أَي أَوْ مَا عَشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَاراً لَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَا تَنْتَفِعْتُمْ بِهِ فِي مَدَّةِ عُمْرِكُمْ ﴿وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ الشَّيْبُ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أَي فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَى مِخَالَفَتِكُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مَدَّةِ أَعْمَارِكُمْ فَمَا لَكُمْ الْيَوْمَ نَاصِرٌ يَنْقُذُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٨)

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ السَّرَائِرُ ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّمُثَاتُ ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢٩)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي يَخْلُفُ قَوْمَ الْآخِرِينَ قَبْلَهُمْ ، وَجِيلَ لَجِيلٍ قَبْلَهُمْ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أَي كَلِمَةً اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَلِمَةً اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُمْ كَلِمَةً طَالَ عُمْرُ أَحَدِهِمْ وَحَسَنَ عَمَلُهُ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَزَادَ أَجْرُهُ وَأَحْبَبَهُ خَالِقُهُ وَبَارَتْهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٣٠)

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَن يَقُولِ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أَي لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أَي أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَاباً بِمَا يَقُولُونَهُ مِنْ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أَي بَلْ إِنَّمَا اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ وَأَمَانِيَهُمُ الَّتِي تَمْنُوها لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذَا مَسَّكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٣١)

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لِهَمَا فَقَالَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أَي أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكُنْهُمَا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج : 65] ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ

وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي ﴿الرُّوم: 25﴾ وَلَئِن زَالَا إِن أَسْكُهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَدْوَةٍ ﴿أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حلیم غفور أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستتر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن قریش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157] وكقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٧﴾ لَوْ أَنَّا عِدْنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: 167، 169] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم.

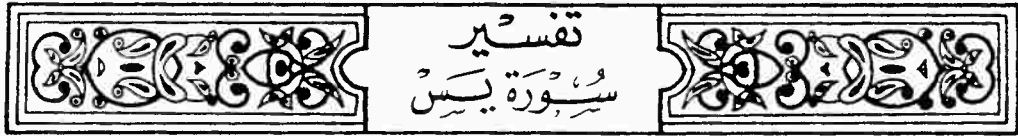
﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿٤٣﴾

ثم بين بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23] ﴿فَمَنْ تَكُنَّ فِائِمًا بِتُكُّكَ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ [الفتح: 10] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره ﴿فَلَن يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿وَلَن يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: 11] ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جتهد به من الرسالة سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والمُدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابِئُهُمْ وَلَئِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾
 ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابِئُهُمْ﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق ﴿وَلَئِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن «يس» ومن قرأ «يس» كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات». ثم قال: هذا حديث غريب.

﴿يَسْ﴾ ﴿١﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ﴿٢﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣﴾ أي على صراط مستقيم ﴿٤﴾ أي على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم ﴿نَزِيلَ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥﴾ صِرَاطُ اللَّهِ ﴿الشورى: 52، 53﴾ ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٦﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، والله يقول ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿الأعراف: 158﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ولا يصدقون به.